(٢٠)

أشتات مجتمعات في القراءة

لقد ذكر «طه حسين» حين أتى الأزهر أنه بعد أن قُرئت له بعض كنوز الأدب والفكر كان يود أن يغوص في محيط المعرفة ، ويعرف منها ما شاء الله أن يعرف ، وقد فعل ذلك طوال حياته .

كيف نتناول القراءة ؟ ومن أي زاوية نبدأ ؟ ليس هناك أبلغ من أن نبدأ بالآيات الكريمة التي بدأ بها الوحي إلى الرسول الكريم محمد ﷺ ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ (العلق:١-٥) والإشارة البليغة من هذه الآيات أن من باب الإيمان القراءة ، وباب العلم القراءة ، وباب الدنيا القراءة ، وباب الآخرة القراءة ، وليس غريباً ـ إذن ـ أن نفكر في إنشاء الجمعية المصرية للقراءة والمعرفة ، دعوة إلى الأخذ بأسباب المعرفة وأسباب الحضارة ، ودعوة إلى تكوين عقول مفكرة ، وللأسف يتهمنا الأعداء بأننا لا نقرأ ، ولا نفيد كثيراً مما نقرأ ، فقراءة التاريخ على سبيل المثال ليست للمتعة والتسلية ، وليست معارك ذات أسباب ونتائج ، إن قراءة التاريخ مهمتها أخذ العظة والعبرة وتوخي الحذر في التعامل مع من حولنا وما حولنا ، إن كثيراً من الحروب التي تدور أو أرها هذه الأيام تعود بالدرجة الأولى في أذهان أصحابها إلى أساطير تاريخية تحركهم وتدفعهم إلى العدوان والتدمير كذلك فإن من الأسباب الجوهرية التي أدت إلى إنشاء الجمعية المصرية للقراءة والمعرفة ما تردد أخيراً عن التركيز على التعليم للإبداع والابتكار ، وكان الإبداع والابتكار مجرد هدف بسيط يأتي هكذا بالصدفة أو بمجرد قراءة مختصرات أو مذكرات .

٢١٧

إن الأمر مختلف تمامًا جد الاختلاف ، فمن هم المبدعون؟ ومن هم المفكرون؟ إن هم إلا مجموعة من الشخصيات المتميزة الذين اختاروا العلم موطنًا والقراءة طريقًا ، والعرق والسهر قدرًا ؛ لأن الإبداع هو أن توجد شيئًا جديدًا من مجموع ما لديك من معطيات ، ولن يأتي ذلك إلا بالقراءة والمعرفة المرتبطة بها والتفكير في الأفكار المختلفة واختيار البدائل منها والبرهنة على إحداها إما بالقياس أو بالتجريب .

وهكذا كان كبار العلماء والأدباء والمفكرين والشعراء والساسة . . إلخ علاوة على ما سبق فإن كثيرًا من الخريجين من الجامعات والمعاهد المختلفة لم يعودوا يدركون كثيرًا مما يدور حولهم ، لقد انكب الشباب على اللهو والتسلية بدلاً من التركيز على المعرفة والعلم وبوابة هذا كله القراءة .

إن كثيرًا من المسابقات التي تعقدها الإذاعة والتليفزيون ، ووزارة الخارجية والمؤسسات المختلفة في الدولة ، أبانت بوضوح شديد تدني المستوى الفكري والثقافي لمعظم شبابنا خريجي الجامعات ؛ حتى أن نتائج بعض المسابقات لم ينجح فيها أحد ، وعادة ما تكون الأسئلة في هذه المسابقات مرتبطة بما يجري حول الشباب من أحداث ، وما يعيشون فيه من بيئات ، وما يرتبطون به من مشكلات . هل يتصور أحد أن يُسأل شاب عن عدد المحافظات في مصر فلا يعرف وأن يُسأل عن بعض الشخصيات المعروفة في التاريخ الإسلامي والعربي فيرجع بها إلى التاريخ المصري القديم ، أننا نعيش أزمة حقيقية ، إن كثيرًا من طلابنا في المؤخرة ، وكثيرًا من طلابنا لا يقرءون ، وكثيرًا من طلابنا لا يكادون يقرءون ولم ندخل بعد على التنافس العالمي في المعرفة ، أو الأولمبياد في المعرفة ، وقد أشار تقرير الرئيس الأمريكي «جورج بوش» الابن الذي ترجعه السيد دعدور وراجعة المتحدث إلى حضراتكم وأشار في حسرة كيف يأتي الطالب الأمريكي بعد الطالب القبرصي وطالب جنوب أفريقيا في الرياضيات .

وأشار ـ أيضًا ـ «أن هناك العديد من أطفالنا الذين لا يستطيعون القراءة ، على الرغم من أن القراءة حجر الزاوية في التعليم والركيزة التي يُؤسَّس عليها الإصلاح التعليمي إننا لن نترك طفلاً في المؤخرة ، إننا لن نترك طفلاً لا يسيطر على القراءة ، وفوق ذلك تركز برامج التعليم في دول العالم المتقدمة على فن القراءة باعتباره الفصل الأول في كتاب التربية ، وباعتبار القراءة تدخل في جميع الأنشطة الحيوية تقريبًا ، وقد أشار إلى ذلك كثير من المفكرين والساسة والكتاب».

ولو أردنا أن نشير إلى بعض مقتطفات لا يستغرق ذلك وقتًا كبيرًا يكفي أن نسمع من «فولتير» هذا السؤال : من يقود الأمم؟ فيجيب هو نفسه «هؤلاء الذين يقرءون ويكتبون» .

و«توماس جيفرسون» الرئيس الأمريكي الثالث يقول (١٨١٦م) .

«الذين يقرءون ويكتبون هم الأحرار ؛ لأن القراءة تطرد الجهل وانحرافه ويقول أيضًا : «إن شعبنا يتوقع أن يجمع بين الحرية والجهل فإنه يتوقع أمرًا لم يحدث ، ولن يحدث» .

فمن أجل هذا كان عقد السبعينيات في الولايات المتحدة عقد «حق كل طفل في أن يكون قارئًا جيدًا» وفي بداية الألفية الثالثة ، وفي سياسة الرئيس الأمريكي «جورج بوش» الابن وجد مبدأ القراءة أولاً سيكون للولايات المشاركة في تطبيق هذا الشعار الحق في تلقي التمويل من أجل برنامج «القراءة المبكرة» ، وسيكون للولايات ـ أيضًا ـ حق تطبيق نتائج البحوث العلمية المختصة بطرق تعليم القراءة في مرحلة ما قبل المدرسة .

كذلك وجدت ضمن برنامج «حق كل طفل في أن يكون في المقدمة» جائزة لأحسن مدرسة تحقق أعلى الدرجات في مستوى تحصيل الطلاب المتأخرين ، ثم يتبع ذلك منح تلك المدارس علاوات تشجيعية من خلال جائزة «لا يوجد طفل متأخر في الدراسة» .

وإذا انتقلنا من الغرب إلى الشرق ، لنعرف الوضع الذي احتلته المعرفة ونافذتها القراءة ، يكفي أن نستمع إلى القول الحكيم : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا ﴾ (فاطر:٢٨) ، فكأنما العلم وحدة مصدر الخشية والمعرفة بالله سبحانه وتعالى والعلم وجه ثان للقراءة ولنقرأ أيضاً ﴿ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾ (العنكبوت:٤٣) .

ولنستمع إلى حديث الرسول الكريم ﷺ : «**أغد عالمًا أو متعلمًا أو مستمعًا أو محبًا ولا تكن الخامسة فتهلك قال أبو الدرداء أما الخامسة التي فيها الهلاك ، فهي معاداة العلماء وبغضهم والعياذ بالله**» .

يلخص هذا الحديث ما ينبغي أن يكون عليه المؤمن فيما يتعلق بالعلم أو المعرفة ؛ فالمؤمن إما أن يكون عالمًا يفيد بعلمه ، أو متعلمًا يرحل في سبيل العلم أو مستمعًا إلى العلماء حيث وجدهم ، أو على الأقل . وإن لم يستطع كل ذلك . فهو محب للعلم والعلماء ، الحب الذي يكون بالتشجيع والتحفيز على العلم والمعرفة بالتبرع بالمال والجهد في سبيل العلم والمعرفة ، وقد سوى رسول الله ﷺ : «**بين طلب العلم والجهاد في سبيل الله**» وأن الملائكة لتبسط أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع ، وقد كان فداء أسرى بدر تعليم القراءة والكتابة لمن لا يعرفها من المسلمين .

إن المكتبة الأولى في مصر وُضِعَت تحت رعاية الآلهة وكتب على بابها هنا غذاء النفوس وطلب العقول ، وكانت مصر القديمة سابقة إلى المعرفة وأداتها القراءة ، فالمصريون هم الذين اخترعوا الكتابة في صورة الكتابة الهيروغليفية من حوالي ٥٠٠٠ سنة ، وانتقلت هذه الأبجدية إلى أبجديات جميع لغات العالم ، كما ذكرت مجلة أمريكية «المنتدى» في أحد أعدادها .

وأشهر مكتبة في التاريخ القديم كانت التي أنشئت في الإسكندرية واحتوت على أعظم المخطوطات في العالم ، حوالي ٧٠٠٠٠٠ مجلد ، وكتب المصريون على أوراق البردي والكلمة الإنجليزية "Paper" مأخوذة من الكلمة

المصرية "Papyrus" . وحيث اخترع المصريون الكتابة بدأ التاريخ الحقيقي للإنسانية ، ومنذ ذلك التاريخ بدأ فن القراءة ، وكان لقراءة حجر رشيد أكبر الأثر في فك رموز الكتابة المصرية .

ومن هنا سيبقى الكتاب أعظم العلامات المضيئة ذات المعنى في تاريخ البشرية كله ، وستبقى المكتبة أقدس مكان لجمع الكتب واسم المكتبة في الإنجليزية "library" مأخوذة من كلمة "Liber" في اللاتينية وتعني الكتاب .

وإذا تبنت بعض الدول برامج طموحة لتعليم القراءة كما سبق أن ذكرنا نموذج الولايات المتحدة ،والذي لخص في التقرير الشهير «لنكن أمة من القارئين» "Becoming Anation of Readers" الذي أعده مكتب البحوث والتطوير التربوي «عام ١٩٨٦م» فإن دعوة السيدة «سوزان مبارك» حرم السيد رئيس الجمهورية (الأسبق) إلى القراءة للجميع تعتبر دعوة متقدمة جدًّا في مجال القراءة والمعرفة وتعتبر في ذات الوقت دعوة لتعميق الفكر وإعمال للعقل واستخدام التفكير .

فإذا كنا نُحصِّل معارفنا ومدركاتنا في بداية حياتنا بالخبرات المباشرة مع المدركات والمحسوسات ، فإننا لا يمكن أن نتوقف عن هذا الحق وإلا صرنا جميعًا أميين لابد أن نستخدم وسيلة أخرى غير الخبرة المباشرة لتحصيل العلم والمعرفة وتنمية العقل ، وهي القراءة .

ولابد أن نستمر على ذلك إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها إن أي تقصير في استخدام القراءة وفي تحصيل العلم والمعرفة معناه التقصير في اللحاق بركب الحضارة .

إن الدولة ينبغي أن تتبنى مشروعًا قوميًّا لقياس المستويات المعرفية المختلفة أو المستويات القرائية المطلوبة لكل مستوى من مستويات التعليم ، وأن تتبنى ـ علاوة على ذلك ـ سد الفجوة بين الواقع والمطلوب في المستوى

المعرفي وفي مستوى مهارات القراءة والسيطرة عليها . وأيضًا نيبغي أن تتبنى معاهد العلم والمعرفة برامج مختلفة لإعداد المتخصصين في العلاج القرائي ، ومن أجل إنشاء عيادات للقراءة "Reading Clinic" تتولى مهمة رأب الصدع في الواقع التعليمي في مصر .

إن جميع البحوث تؤكد على أهمية تنمية المهارات الأساسية للقراءة في المرحلة الأولى من التعليم ، بل في الصفوف الثلاثة الأولى ، بل في الصف الأول الابتدائي ، وإذا فشلنا في تحقيق ذلك فإننا نكون قد فشلنا في أخطر مهمة من مهام التعليم ، ونكون قد فتحنا الباب على مصراعيه لمزيد من الأمية ومزيد من التسرب ومزيد من الهدر التعليمي .

لقد كان من السهل على أي شخص في الماضي أن يحترف أي حرفة يستطيع أن يعيش عيشة طيبة مع أسرته ، أما الآن فإن معظم الوظائف تتطلب المعرفة ، وتتطلب مزيدًا منها كل يوم .

لنتذكر الرئيس الألماني في خطابه أمام البرلمان الألماني ، أن على الشباب الألماني ألا يتوقف عن القراءة وألا يمتهن مهنة واحدة ، وأن المعارف تتزايد باستمرار ويتطلب الأمر من الشباب أن يعرفوا ، وأن يكيفوا أنفسهم من المهن المختلفة التي تظهر كل عدة سنوات ، من هنا كانت ضرورة التدريب المستمر .

* * *